قرأت العدد الماضي من «الآداب»

د . صبحي الصالح

اصدرت « الآداب » عددها الاخير (شباط « فبراير » ١٩٧٥)خاصا بقضايا التعريب . وضم هذا العدد ملف « ندوة التعريب » التي عقدت في طرابلس بليبيا بين ٢٥ كانون الثاني والثاني من شباط . وتعميما للفائدة عمدت « الاداب » مشكورة الى نشر معظم البحوث بنصوصها الكاملة ، والى تلخيص ما تعذر نشره منها ، والى سرد المقررات والتوصيات التي اتخذت بشأن التعريب وقضاياه .

ومع اني حضرت هذهالندوة العلميةالناجحة ، واسهمت فيمناقشة ما أثير خلالها من المعضلات ،ومع أن بحثي فيها عن « العربيةوالتعريب» كان اول البحوث التي استهلت بها اعمالها ، ومع ان « الاداب » نشرت بحثي [illegible] عقدتها ، عنيت من جديد بقراءة هذا الملف كاملا، وقدرت أن التعليق على بعض البحوث يفيد جمهرة القراء من ناحية، ويؤكد رغبتنا في مواصلة الاهتمام بالتعريب، من ناحية ثانية .

لقد التقت عناصر الدراسات كلها في خط واحد جمعها ونسق بينها : وهو ايجاد الوسائل الكفيله بوضع التعريب موضع التنفيذ . وكان بديهيا ان يحملنا التكامل الملحوظ بوضوح بين المقدماتوالنتائج على الاكتفاء بمعالجة النقاط الاساسية ، واهمها الثلاث التالية :

أ ـ فلسفة التعريب .

ب ـ منهجية التعريب .

جـ ـ الجزائر : نموذج حي للتعريب .

اولا : فلسفة التعريب

لا ريب في أن للتعريبفلسفتهالتيبرز دوافعنا الحقيقية الى الاهتمام به . فان بدا لكثير من الناس ان ايجاد المصطلحات الفنية ـ التقنية هو شغلنا الشاغل ، فهذا صحيح بحسب الظاهر ، وهو ايضا على جانب كبير من الاهمية ، لكنه على صحته واهميته يظل « جزئيا » على هامش التعريب ، لانه في ضوء التحليل الفلسفي الشامل لشخصيتنا العربية (تاريخيا وثقافيا) يتقاصر بهمناوطاقاتنا دون استعادة تلكالشخصية: غايتنا الاساسية المستكنة فيكل عمليات التعريب .

عرض لهذا الجانب الفلسفي الدقيق الدكتور انطوان المقدسي في بحثه : « التعريب في دلالته التاريخيه : من الترجمة الى التعريب »(١). وعنوان البحث قد يوحي باعتماد المنهج التاريخي سردا لمراحل التعريب واطواره وخطواته ، لولا التوقف عند امرين : احدهما الدلالة التاريخية ، وهي عبارة أشد التصاقا بالتحليل الدقيق للدالوالمدلول، والرمز والتعبير ، والاخر هو الانتقال من الترجمة الى التعريب ، اي من الذات الى المجموع ، او من الفرديات الى الكليات (٢) . وفي هذين الامرين تركيز واضح على الزاوية الفلسفية التحليلية التي لا تستقي من وقائع التاريخ الا ما كان منها يسلط الاضواء على تحركات الشعوب والاقوام ، وتطورات العصور والاجيال .

وكان لزاما علينا ان نتابع مع الدكتور المقدسي المراحل التي تعاقبت على اساليب القدامى في نقل الكلمات الاجنبية الى لغتنا ، فقد ترجموها في منطلقاتهم الاولى بمنطوقها الحرفي او بما يشبه ذلك المنطوق ، ولم ينتقلوا الى طبعها بميسم العربية ، وانزالها على صيغها واوزانها ، الا في اطوار لاحقة تواصلت فيها الثقافات، وتفاعلت خلالها الحضارات ، وتخطت على اثرها لغتنا العلمية والحضارية اشكال الترجمة البدائية ، لتنصهر انصهارا كاملا في جوهرالشخصية العربية ، تعبيرا عن ذاتيتها واصالتها . واثبتوا بصنيعهم هذا ـ كما ذكرنا في بحثنا (٣) ـ ان اللغة ، كل لغة ، ليست اكثر من اداة اتصال بالتجربة الانسانية واداة تحليل لها ، وان هذه التجربة نفسها عرضة للتغاير والاختلاف بين مجتمع واخر ، وبين بنية واخرى (٤) ، وان ما ننشده من كل لغة انسانية ، ومنها لغتنا العربية الفصحى ، هو تحديد رؤيتنا للحقائق والاشياء ، وللكون والحياة ، وللانفس والافاق ، وفاقا لما صرح به مارتينه Martinet في قوله الموجز الواضح : « انما نتوخى من اللغة ان نتمكن بوساطتها من تحديد رؤية كل منا للعالم الذي يحيط به » (٥) . وفي هذا المعنى نفسه يقول كاسيرر :« ان الانسان لا يدرك العالم ولا يفكر فيه بوساطة التعبير فحسب ، بل توشك رؤيته للعالم ان تكون محددة قبل بالتعبير » (٦) .

والنظر الى اللغة الانسانية على انها تحديد مستقل لرؤية العالم ، لا ينبغي ان يقلل من قيمة الترجمة بعد ان وضع لها علماء اللغة المعاصرون ضوابط ومقاييس دقيقة ، ولكنه في الوقت نفسه يردها الى حجمها الحقيقي ، واذا هي ممتنعة او متعذرة مهما تك حرفية في نقل المشاعر والاحاسيس (٧) ، بينما تبدو اقرب الى ايراد الدلالة المطلوبة عند نقل مصطلحات العلوم .

ومع ذلك ، لا مناص لنا من الاعتراف بأن بعض اللغات اقدر من بعض على اقتراح المبادلات اللفظية المكافئة للمدلول المطلوب، حين يثبت بالمقارنة الالسنية انها كالعربية غنية بالابنية والصيغ غناها بالاشتقاق والتوليد . ويطيب لنا هنا ان نوافق الدكتور المقدسي على « ان الكلمة العربية ، بحكم اشتفافها في اغلب الاحوال من المصدر ،فعالة اكثر مما هي عليه في سائر اللغات ، فهي تركز النص حول محاور ، تستقطب كلا منها وشده اليها ، حتى ليبدو وكأنه منظومة من الوظائف اللامركزية (ان صح التعبير) ،وهي وظائف يتباعد عنها ناظمها كلما اقتربت منه » (٨) .

ويزداد الربط بين اصالة العربية في نقل الفكر الانساني وبين استعدادها الذاتي لتعريب الالفاظ ثم تملكها بوساطة هذا التعريب ،

---

(١) الآداب ، ص ١٤ .

(٢) هذا تعبير سبينوزا في « الاخلاق :

C f . Spinoza , La Morale

(٣) الاداب (العربية والتعريب) ص ٥ .

(٤) Georges Mounin , Les problémes lhéoriques de la traduction , Gallimard , Paris 1963 , P . 58 - 59

(٥) Ibid . P . 50 .

(٦) Ibid , P . 44 .

(٧) Ibid . , P . 9 . 4ème Partie

(٨) الاداب ص ١٦ .

اذا مـا القينا نظرة على ما تفتحت لغتنا لاحتوائه واستيعابه من الفاظ اغريقيـة استخدمهـا فلاسفـة اليونـان لتفسير الكـون والحيـاة والانسان ، فقد عرف اسلافنا العرب من العلماء والمفكرين كيف يشقون الطريق الى خط فكري جديد،مستقل كل الاستقلال عن الخط الاغريقي وان كـان في البدايـة قد انطلق من ذلك الخط القديم : ذلك مـا نستنتجه باطمئنـان من وضعهم كلمـة « جوهر » للدلالة على«اوسيا»»، ولفظ « طبيعـة » ازاء « نيس » ، و « عقـل » مقابـل « نوس »» و« مبدأ » للكلمـة الاغريقية « ارخه » على سبيل المثال .

وان هذه القدرة الذاتية على التفتح والاحتواء والتملك والاستيعاب هي التي اتاحت للمصطلحات العلمية الرياضيةان تحرزفي تصانيفعلمائنا تقدما كبيرا ،حتى مهدت السبيـل لنظريـات الفيزياء الرياضيـة ، ولنظريات المعرفة الديكارتية والكنطية : « فالعرب ـ كما قال الدكتور المقدسي بحق لم يقتصروا على حفظ التراث الاغريقي ونقله سليما معافى الـى اصحابه كمـا يزعمون ، بل الفـوا بيـن الخطين الكبيرين فـي تاريخ الفكر الانساني ، وهمـا الخط السامي العربي من جهة ،والخط الاغريقي مـن جهة اخرى ، وهذا التاليف هو الذي قامت عليه الثقافة منذ عصر النهضة الى المنعطف الذي يتكون اليوم مع الحداثة » (٩) .

ان عملية التعريب التي عادلت في نظـر اسلافنـا عملية«التعقيل» rationalistion وكانت برهانا على امكان التنسيق ،بل على وجوب التنسيق بين اللفظ والرمز ، وبين الرمز والاصل ،وبين الاصل والعقل ، وبيـن المبدل والبديل ، هي التي ينبغي ان تقنعنا بان امارة وجودنـا ووجود لغتنـا لا ترتسم في حياتنا العمليـة ارتساما سليمـا صافيا الا اذا « حدثنا » اساليبنا في تصوراتنا للحقائق والاشيـاء « تحديثا » يبرز شخصيتنا العربية التي لم تمت ولن تموت !

ثانيا : منهجية التعريب

ولكيلا يصطبغ بحثنا بالطابع الفلسفي ، او مـا يشبه ان يكـون فلسفيـا تحليليا ، مع انه في الاساس لغوي محض او« فيلولوجي » philologique بل يوشك ان يكون قائما على عملية التركيـز النطقـي Logocenfrisme نؤثر الان ان نتحول بملحوظاتنا كلها الى الاسلوب التطبيقـي او المنهجي . وتسعفنـا في هذا الصدد ثلاثـة ابحاث كان اولها اغزرهـا مـادة ، واعمقهـا فكرة ، واكثرها عملية ، واخلقها بالتعليق والتعقيب .

عناوين هذه الابحاث ـ التي نشرت في عدد « الاداب » الاخير ـ هي التالية على وجه الترتيب :

١ ـ توحيد المصطلحات او وحدة الثقافة ، للدكتور محمد رشاد الحمـزاوي .

٢ ـ الترجمة والتعريب بين الفصحى والعامية ، للدكتور مجيـد حلاوي والدكتور مجيد الماشطـة .

٣ ـ العربية والمصطلح العلمي ، للدكتور ابراهيم السامرائي ،

ومنهجية التعريب توشك ان تفصح عن نفسهـا فيمـا سماه الدكتور الحمزاوي بتوحيد المصطلحات ، حيـن لـم يجد ضيرا في التسوية بينه وبيـن « وحدة الثقافة » . ومن هذا العنوان نفسه ـ وقد تردد بيـن عبارتيـن تؤديـان الى غاية واحدة ـ استشفقنا لدى الحمزاوي رغبة واضحـة في التحول من « اعتباطيـة » التوحيـد الاصطلاحـي (كيفما يتهيأ ذلك التوحيد) الى « موضوعية » وحدتنا الثقافية التي هي همنا الاول والاخير . ولقد رأى الباحث ـ ونحن معه ـ ان افضل وسيلـة لمعالجـة هذه المشكلـة تنحصر فـي وضعهـا داخـل اطارهـا

(٩) الاداب ، الفقرة الاخيرة من الصفحة ١٦ ، وانظـر استطرادا ما نقله الدكتور المقدسي هنا مـن اراء هيدجر في قضايا التفتحالذاتي والاحتـواء .

التاريخي واللغوي ، لعلنـا نتمكـن من تحليل مظاهرها واسبابها (١٠).

وبعـد ان جال الدكتور الحمزاوي جولة عاجلة باوائل المحاولات لتوحيد المصطلحات ، ابتداء بالمستشرق الايطالي نللينو في مجمع اللغة العربيـة بالقاهرة ، ومرورا باراء علي الجارم ، والشيخ محمد الخضر حسين ، والشيخ عبدالقادر المغربي ، والشيخ محمد رضا الشبيبي ، اكـد ان مصطفى الشهابي كـان اول من وضع القضيـة في اطارهـا الواسع ، اذ ارخ لكل المحاولات العربيـة الرسمية والفردية من ١٩١٩ الى ١٩٥٢ « ملاحظا ان الشعور بضرورة توحيد المصطلحات العلميةاصبح في البلاد العربية شعورا عاما » (١١) .

وما زال الحمزاوي يتقصى المساله في اطارها التاريخي متوقفاعند الذيـن افترضوا في اللفظ العلمي ان يكـون لفظـا لا عبارة ، وان يستخرج هذا اللفظ من مفردات اللغـة وان حكم على بعضها بانه مهجور او ممات ، ما دام في وسع الباحثيـن بسط دلالته الاصلية . وربمـا كـان ذا جدوى استشهادنـا ببعض الامثلة التـي دعا بهـا بعض المعاصرين الى التزام منهجية فـي صوغ المصطلحات الطبية (١٢) كمضاهاة الافراد اللفظي بمثله ، حين نترجم Aphasie بالصمات ، بدلا من العبارات المركبة التالية : تعذر النطق ، او احتباس الكلام ،او امتناع النطق ، وكمراعاة صلات الترابط الاشتقاقي والتصريفي والمعنوي بيـن المصطلحات ، حين نتحول بجذر Trophy الى الالفاظ العربية المقترحة لكل من الكلمـات الانكليزية التالية :

Trophic Nerve , Troqhic disturbance , Dystrophy , Atrophy , Hypertophy ,

واذا هي في العربية على التوالي : عصب الاغتذاء ، حثل ،سغل، ضمور ، ضخـم .(١٣) ونمضي مع الدكتور الحمزاوي وهو ياخذ على احاديي اللغـات معالجتهـم قضيـة المصطلحات عن طريـق الترجمـة المحضة كانها الوسيلة المثلى لتوحيد الثقافة ، تبنيـا منهـم للاصول العربية القديمة مهما تك قاصرة عن اداء المعنى المطلوب ، واستنادا منهم الى سلفية لغوية اشد خطرا على المصطلحات من مترادفاتها الحديثة المتكاثرة . واذا نحـن نسلم معه بأن موقفنـا من تحديد المراد بالتقـدم العلمي هـو السر الكامن وراء ما نشكـو منه مـن اضطرابمصطلحاتنا. ونسلم معه ايضا بان اختلافنا مثلا على ما يقابل لفـظ Pancreas ايكـون البنقرياس ام الحلوة ام الغدة ؟ لم ينشا عن الترادف بقدر مـا نشا عـن نزعات علميـة متنازعة : « النزعة الموسوعية التي تنظر الى الحديث من خلال القديم ، والنزعة الوطنية التي ترضى بالغموض على حساب القديم والحديث . فالنزعة الانشائية تكاد تكـون معدومة، فنحـن لا ننظـر للعلم الا مـن خلال مـا عـُرف خوفا من هاويـة الفـراغ » (١٤) .

ونتتهي مع الدكتور الحمزاوي الى اقرار مبدا ، والى تقـديم مقترحات ، امـا المبدا فهـو ان انتشار اللغـة (اي لغـة كانت) رهن بمدى اسهامهـا في التسارع العلمي والتقدم الحضاري ، ومشاركتهافي تملـك معنى اللفظ قبل اقتراح صياغته ، مهمـا تكـن تلـك الصياغة، وذلك يعني ان كل تخلف توصم به لغتنـا مثلا ينحصر في الباحثيـن العرب لا في اللغـة العربية (١٥) ، ولا سيمـا اذا اخذت بعينالاعتبار

(١٠) الاداب ، ص ١٧ .
(١١) الاداب ، ص ١٨ .
(١٢) كالاستاذ احمد عمار في البحوث والمحاضرات ١٩٦٠ ـ ١٩٦١ ص ٤٥ ـ ٥٦ .
(١٣) الاداب ، ص ١٩ .
(١٤) الاداب ، ص ٢١ .
(١٥) الاداب ، ص ٦ (انظر بحثنا عن العربية والتعريب) .

الطرائق التي اقترحناها لاشتقاق الالفاظ عند الحاجة اليها (١٦) .

واما المقترحات فنوردها بنصها الذي صاغه الدكتور الحمزاوي في ختام بحثه بايجاز :

ـ رصد ما يزيد على واحد في المئة من مدخول كل فطر عربي للبحث العلمي ولمكافاة الباحثين حتى يتفرغوا لمثل هذا البحث .

ـ ربط قضايا اللغة بالقضايا الاجتماعية والاقتصادية والادارية في الاقطار العربية .

ـ تكوين هيئة علمية عربية عامة تنسق برنامج البحوث خلال سنين معينة . ولا بأس في ان يشترك في تلك الهيئة اختصاصيون في علم الاقتصاد والاجتماع والنفس وخبراء انمائيون .

ـ وضع مراجع نقدية مفهرسة تعرف بالانتاج العربي في الاختصاصات المتنوعة .

ـ تكليف لجان مختصة لوصف التراث القديم والحديث وابراز قيمتهما العلمية .

ـ عقد مؤتمرات متوالية في البلدان المسؤولة عن اختصاصها واتخاذ القرارات الجماعية (١٧) .

وحين ننتقل بعد هذا الى بحث الدكتورين حلاوي وماشطة عن (الترجمة والتعريب بين الفصحى والعامية) (١٨) قد تأخذنا الدهشة للوهلة الاولى من احتمال التساهل بالفصحى ما دامت العامية توضع بجانبها في معالجة الازمات الناشئة في بلادنا تارة من الترجمة وتارة اخرى من التعريب .

ولعل هذه الفكرة التي تساورنا هي التي حملت الباحثين على ان يبادرا الى التصريح بلهجة حاسمة :« ان مسألة الترجمة والتعريب والعامية والفصحى تتداخل فيما بينها ، وكلها تشير الى ازمة اللغة العربية » (١٩) .

ونحن مع الباحثين هنا على طرفي نقيض ، فان مجرد ادراجهما العامية في اطار التعريب امر عجيب ! لا نقول هذا لاننا نربط العامية بالكلام والفصحى بالكتابة ، كما فعل محمود تيمور (٢٠) ، وان كنا نتفق معه على ان العامية لا ضابط لها ، ولا نظام ، وانما نقوله بكل وضوح لان العامية ـ في نظرنا ـ ليست ترجمانا دقيقا للغة العلم « التقني » الحديث ، ونحن في القرن العشرين نريد اللغة اداة لاكتساب المعارف المتجددة باستمرار ، ولا نريد ان تنحصر في فنون الادب والشعر تعبيرا عن خلجات الشعور .

من اجل هذا كنا وما نزال نقول : ان عملية التعريب ليست لعبة لفظية ، ولا زخرفة جمالية ، ولا انفعالات عاطفية ، ولا همسات شعرية ، ولا انغاما موسيقية ، ولا شعوذات سحرية ، ولا شطحات صوفية ، بل هي على العكس من ذلك عملية علمية ، منهجية ، واقعية (٢١) .

اما زميلنا الجليل الدكتور ابراهيم السامرائي فما ارتاب في انه كتب بحثه عن « العربية والمصطلح العلمي » (٢٢) في عجلة من امره ، لان عبارة « المصطلح العلمي » تطمع القارىء باشياء كثيرة ، نفيسة ، عودنا على نظائرها الزميل الكريم في بحوث له مشهورة . ولكننا الفيناه في عجالته هذه يحاول اقناعنا ، باسلوب تقليدي ، بأن العربية كانت سيدة لغات العالم القديم خلال قرون متلاحقة ابتداء من القرن السابع الميلادي ، واننا اليوم نواجه في هذه العربية مشكلات لاننا لا نملكها كما كان اسلافنا يملكونها ، وان وسائل تعلمنا اياها متخلفة عن العلم الصحيح بوسائل التربية الحديثة ، وان التراجمة النصارى نقلوا اليها فلسفة الاغريق ومعارفهم حين وجدوا ان سريانيتهم لا تؤدي تلك الاغراض الجديدة (٢٣) . وضن علينا الدكتور السامرائي بتبيان ما يتوخاه في المصطلح العلمي ليأتي على المقياس العربي الفصيح ، الا انه عرض علينا بعض التوصيات التي ننقلها بنصها دون تعليق :

١ ـ يكون المصطلح من الالفاظ التي لا تنصرف معانيها الى مدلولات كثيرة .

٢ ـ ان يكون المصطلح من الالفاظ السهلة الميسرة في عدة بنائها من حيث الاصوات .

٣ ـ ان تكون بسيطة لا مركبة بقدر الامكان . وبذلك يستغنى عن الالفاظ المنحوتة والالفاظ المضافة .

٤ ـ ان يكون المصطلح من الالفاظ المعروفة ، فلا يلجأ الى الغريب الا عند الضرورة او في حالة ان اللفظ الغريب كان مصطلحا قديما معروفا .

٥ ـ ان يكون المصطلح دالا على المادة المرادة فلا يشترك فيه موضوع آخر .

٦ ـ ان يتجنب المعرب عند اختيار المصطلح ، ويفضل عليه الكلام العربي (٢٤) .

ثالثا : الجزائر : نموذج حي للتعريب

انها لفرصة ميمونة حقا ان نجد الجزائر الفتية نموذجا حيا للتعريب ، كأنها ـ بعد سني الاحتلال الطوال ـ ادركت وحدها فلسفة التعريب ، وطبقت بقوة وحسم منهجية التعريب . ولقد قرأنا في هذا الصدد مقال الاخ الجزائري الاستاذ عبدالقادر حجار عن « سياسة التعريب في الجزائر » (٢٥) ، وتابعنا من خلاله اوضاع العربية في عهد الاحتلال ، ثم رأينا قضية التعريب ضمن المشاكل الوطنية المستعجلة على اثر استقلال الجزائر مباشرة ، وعلمنا ان هذه القضية طرحت في الجزائر من حيث الطرق والمناهج ومن حيث الامكانات البشرية والمادية ، وان الصعوبات التي واجهت المدرسة الجزائرية الفتية كانت ديمقراطية التعليم ، وجزارة الاطارات ، والمحتوى العلمي والتقني للمواد المدروسة ، وان هذه الصعاب كلها ذللت لدى المعلم والكتاب المدرسي ومواد البرنامج ، ابتداء من وزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية وانتهاء بالجامعة ، مرورا باجهزة الاعلام ، وجهاز القضاء ، وجهاز الادارة ، وحتى اطار الشرعية في السياسة والتوجيه .

وفي اعتقادنا ان الجزائر آذا ظلت تواصل مسيرتها على هذه الصورة النشيطة الفذة سوف تسبق جميع الدول العربية لا الى مجرد العلم بالعربية بل الى استعادة الشخصية العربية بكل اصالتها وذاتيتها ، وبكل مزايا رسالتها الخالدة لبني الانسان .

وبعد ، فان هذه التعليقات السريعة على عدد « الاداب » الماضي الخاص بقضايا التعريب ، لا تدع مجالا للشك في ان الباحثين العرب باتوا يعرفون للغتهم مزاياها ، ويدركون كيف يستعيدون بوساطتها فكرهم العلمي العميق ، وكيانهم الذاتي الاصيل .

---

(١٦) انظر صور الاشتقاق في كتابنا « دراسات في فقه اللغة » الطبعة الخامسة .

(١٧) الاداب ، ص ٢٥ .

(١٨) الاداب ، ص ٢٦ .

(١٩) الاداب ، ص ٢٧ .

(٢٠) محمود تيمور : مشكلات اللغة العربية (القاهرة) سنة ١٩٥٦ (ص ٩ ـ ١٠) .

(٢١) مقطع من محاضرة لنا في النادي الثقافي بجبيل ، اغسطس سنة ١٩٧٠ .

(٢٢) الاداب ، ص ٣١ .

(٢٣) الاداب ، ص ٣١ ـ ٣٢ .

(٢٤) الاداب ، ص ٣٣ .

(٢٥) الاداب ، ص ٣٨ .